دور مهنة عمارة البيئة
في إعداد الأمكنة الخارجية المفتوحة *

المقدمة

لا تزال مهنة عمارة البيئة تعاني في العالم العربي، هي بالفعل مهنة غير مجهولة؛ وموجودة وتمارس، لكنها تحتاج إلى اتخاذ مكانها المفروض، سواء على مستوى الممارسة المهنية أو التعليم المعماري. وتمثل هذه المقدمة موجز مختصر عن كتاب "مهنة عمارة البيئة" للمؤلف، وهدفها هو التعريف بماهية المهنة، وملامح تداخلاتها مع المهن الأخرى، وكيفية إعداد المسؤولين عنها. ومن هنا تعد هذه المقدمة تمهيد لازم لهذا العمل، إذ أن الأبواب العلمية التالية تتناول كلها دراسات تدور حول موضوعات صميم اختصاصها هو مهنة عمارة البيئة.

يبحث هذا العمل في ثلاثة مباحث: أولاها- ماهية الأمكنة الخارجية المفتوحة وعلاقتها بكلمة البيئة عامة والبيئتين الطبيعية والمشيدة (أي المصنوعة خاصة. ثانيها- إمكانية صياغة مسمى للمهنة التي تعنى بإعداد الأمكنة الخارجية المفتوحة (تنسيق مواقع؟ أم عمارة بيئة؟ أم عمارة تصميم الأمكنة الخارجية المفتوحة ؟) والاتفاق عليه كتخصص مستقل. ثالثها- مسؤوليات المتخصص عن إعداد هذه الأمكنة، وبحث مدى تداخل دوره مع ممارسين آخرين في هذا المجال (المعماري والمصمم العمراني والمصمم البيئي والمخطط العمراني والمخطط البيئي والمهندس الزراعي)، بالإضافة إلى الإشارة لبعض جوانب كيفية إعداده. يبدأ هذا العمل بإلقاء الضوء على بعض مفاهيم كل من البيئة والبيئة الطبيعية والبيئة المشيدة (الطبيعية المفتوحة والمحيطة بمناطق العمران البشري وضمنه)، التعريف بماهية مستوياتها ومقاييسها وأشكال التهيئة للتعامل معها. في العالم العربي لا يوجد اتفاق على مسمى وحيد لمجال تهيئة الأمكنة الخارجية المفتوحة، ومن ثم يناقش هذا العمل الطرح المختلف لبعض المسميات الأكثر تعبيراً عن مجالات التهيئة، بداية من التعبير الغربي لها والمعروف شيوعاً باللاندسكيب مسمى للمهنة، وتحري مدى قوة تعبيره عن المجال دون مسميات أخرى قد تكون أقرب في تعبيرها عن هذا المجال مثل: تنسيق المواقع أو عمارة مناظر الأرض أو عمارة البيئة أو العمارة البيئية. وفي هذا الاتجاه تختبر هذه الورقة ثلاثة جوانب: ١- دقة الاستعمال الشائع لمصطلح "لاندسكيب" الغربي كما هو، وبدون ترجمة، ليكون مصطلحاً يصف مجال التعامل مع كل ما يخص الأمكنة الخارجية المفتوحة، ٢- ملائمة الترجمة العربية للمصطلح الغربي "landscape architecture" إلى تنسيق المواقع شائعة الاستعمال في العالم العربي، ٣- ملاءمة استخدام مصطلح "عمارة البيئة" ليكون المسمى عربي للمجال الذي يتضمن ضمن مهماته تهيئة الأمكنة الخارجية المفتوحة، ولكن مع الاحتفاظ بالمصطلح الغربي "عمارة اللاندسكيب".

* يمكن الرجوع لقراءة تفصيل كل ما جاء في هذه المقدمة في كتاب "مهنة عمارة البيئة" للمؤلف.

أما عن بيان دور الممارس المهني في مجال إعداد الأمكنة الخارجية بوضوح فسيكون من خلال مجموعة من التساؤلات: ١- ما هي ضرورة وجود مهني ممارس خاص مسؤول عن؟ وما هي مجالات البناء التي يسهم بدور فاعل فيها ؟ ومن ثم يطرح هذا العمل مقترح لمسمى ممارس المهنة المتوافق مع هذه المهمات ليكون "معماري البيئة". وتشير هذه الورقة إلى نبذة عن خلفياته العلمية في مستوى التعليم الأساسي والعملية التطبيقية في مجال ممارسة المهنة، وذلك بغرض بيان الكيفية التي يمكن بها إعداد مصمم للأمكنة الخارجية المفتوحة. وتوصي هذه الورقة في البداية- بالعمل على الاهتمام بوجود مجال تخصص مهني لإعداد الأمكنة الخارجية المفتوحة سواء في البيئة الطبيعية أو المشيدة، وثانياً- تشجيع المختصين في مجالات العمران الاعناية بتطوير مدارس التعليم المعماري لفهم مجال التخصص والعناية به من ناحية، وتجهيز مجالات الممارسة لفهم تكامل دور هذا التخصص مع الاختصاصات الأخرى من ناحية أخرى.

١. نحو إعداد الأمكنة الخارجية المفتوحة

من المتعارف عليه في العالم العربي أن مجالات البناء الأساسية هي العمارة والتخطيط ثم بدأت في الظهور تخصصات أخرى مثل التصميم الداخلي والتصميم العمراني وتقنيات البناء، وكلها تدرس في كليات العمارة والتخطيط أو في أقسام العمارة والتخطيط بكليات الهندسة. في منتصف القرن الماضي ظهر تخصص كان اهتمامه يدور حول الأمكنة الخارجية المفتوحة في كلا البيئتين المشيدة والطبيعية، وعرف هذا التخصص في العالم العربي تحت مسمى تنسيق المواقع مشتقاً من المصطلح الغربي عمارة اللاندسكيب، واتفق على أن دوره موجه في الأساس نحو تحقيق الجمال ودعمه في الأماكن المفتوحة في عمارة المدن، مع الأخذ في الاعتبار تأثيرات قوى الطبيعة والناس على المكان من جهة بالإضافة إلى بعض اهتماماته بالمناطق المفتوحة خارج المدن وفي البيئات الطبيعية من جهة أخرى، كما أن دوره مكمل ويأتي بعد الانتهاء من عملية التصميم وحتى بعد صياغة التشكيل العمراني (العلاقة بين الكتلة والفراغ). أما في العالم العربي فلا يزال دوره محصوراً في أعمال التنسيق والتزيين والتجميل، ويقوم بهذا العمل المعماري، ومخطط المواقع، ثم المصمم العمراني في النواحي الخاصة بالبناء، بينما كانت تسند الأعمال الخاصة بالنباتات إلى المهندس الزراعي. ظل هذا التخصص لفترات طويلة وحتى الآن في جامعات العالم العربي يدرس ضمن تخصصات العمارة والتخطيط، كما أنه لم يعتمد تخصصاً مستقلاً على مستوى ممارسة المهنة حتى الآن، ولا توجد في النقابات المهنية شعبة للمعماري أو المهندس الذي تسند إليه أعمال إعداد الأمكنة الخارجية المفتوحة.[١]

وتعد المملكة العربية السعودية هي الدولة العربية الرائدة التي خصصت قسماً مستقلاً لتدريسه ضمن أقسام الكلية الأخرى باعتباره تخصصاً جديداً في الجامعات العربية، كما اعتمدت خريجيه كمختصين في هذا المجال تحت مسمى معماري البيئة.[٢]

أدى التطور الحادث في مجالات العمران إلى ظهور نشاطات جديدة يمكن ممارستها في الأمكنة الخارجية المفتوحة، كما جاء العلم الحديث بطرق ووسائل للتعامل مع قوى الطبيعة وقوى الإنسان المؤثرة على هذه الأمكنة، الأمر الذي دعا إلى أهمية إعداد هذه الأمكنة بصورة علمية تتجاوز مجرد الرغبة في تحقيق الجمال. تهتم العمارة بتصميم الكتلة، وتخطيط المواقع يهتم بالتنظيم الفراغي للعلاقة بين الكتلة والفراغ، والتصميم العمراني يهتم بالتشكيل الفراغي لعمارة المدن مع احترام الإنسان وتوجهاته.

وعلى ضوء اتساع مساحة عمل المختصين في إعداد الأمكنة الخارجية وتداخلها مع اختصاصات مثل تصميم وتخطيط المواقع والتصميم العمراني بدا أن هناك ضرورة لوجود اختصاص يهتم بدراسة تأثيرات قوى الطبيعة والإنسان واحترامها عند إعداد الأمكنة الخارجية المفتوحة، على أن يتضمن خلاله العديد من الاختصاصات المؤثرة في تناغم مع بعضها على التشكيل النهائي.

وحيث أن المصطلح العربي تنسيق المواقع قد لا يعبر بدقة عن الدور الذي يقوم به المختصين في إعداد الأمكنة الخارجية المفتوحة في البيئتين الطبيعية والمشيدة تهدف هذه المقدمة إلى الإجابة على عدة تساؤلات هي: ١- لماذا الاحتياج لتخصص لإعداد الأمكنة الخارجية المفتوحة، وما المسمى الملاءم له؟ ٢- من هم المختصين في المهنة الجديدة، وما هو دورهم المهني؟ ٣-كيف يتم إعدادهم على المستويين التعليمي والمهني؟

٢. جدل ونقاش وواقع حتمي

دار الجدل بين المختصين في إعداد البيئات العمرانية المشيدة والطبيعية حول أهمية الاحتياج لتخصص مستقل لإعداد الأمكنة الخارجية المفتوحة في المدن وخارج المدن، لم يكن هذا الجدل محصوراً حول الاختلاف على مسمى المهنة فقط بقدر ما دار أيضاً حول اختصاصاتها. وفي واقع الأمر لم يأخذ هذا الجدل جانب التوثيق الذي يمكن تتبعه من الناحية الإحصائية، سواء على مستوى الندوات والمؤتمرات أو حتى في الكتابات البحثية العلمية المتخصصة والتي تصلح مرجعاً علمياً بقدر ما كانت تدور هذه المناقشات داخل أوساط المختصين بعملية تعليم المهنة بالجامعات في العالم العربي والوافدين من الخارج بعد إعداد البحوث العلمية كالدكتوراه والماجستير في هذا التخصص. وكان لكل من جامعة الملك فيصل وجامعة الملك عبد العزيز بالمملكة العربية السعودية السبق في أن يأخذ هذا الموضوع شكلاً عملياً وتطبيقياً، حيث بدأ كل منهما بخطوة رائدة نحو إنشاء قسم يهتم بإعداد الأمكنة الخارجية المفتوحة. بدأ التنفيذ بإنشاء برنامج الدراسات العليا في جامعة الملك فيصل بالدمام في العام (١٩٨٥م) تحت المسمى العربي تنسيق المواقع مع الاحتفاظ بالمصطلح الغربي عمارة اللاندسكيب، وفي العام (١٩٩٤م) بدأت الدراسة على مستوى الدرجة العلمية الأولى (البكالوريوس)، وفي العام (٢٠٠١م) تم تحويل مسمى القسم إلى عمارة البيئة مع الاحتفاظ أيضاً بالمصطلح الغربي، ومن ناحية أخرى بدأت جامعة الملك عبد العزيز بجدة في العام (١٩٨٤م) الدراسة قي قسم تصاميم عمارة البيئة على مستوى البكالوريوس.[٣]

ولعل البدء في هذه التجربة الرائدة والتباين في اختيار المسميات في البدايات المبكرة لها وما تبعه من اتفاق على مسمى عمارة البيئة من ناحية وما واكبه من تطوير في المناهج الدراسية عند البدء والآن من ناحية ثانية يمكن أن يشير بعض الشيء إلى أن هناك نقاشات وحوارات دارت حول تلك المهنة الجديدة في بعض أجزاء من العالم العربي[٤]. هذا الحوار الذي لم يواكبه تنفيذ إلا على مستوى دولة عربية واحدة فقط هي المملكة العربية السعودية، بينما باقي جامعات العالم العربي ما تزال تناقش هذا المفهوم بين المختصين إلا أنها حتى الآن لم تأخذ المنحى التطبيقي في هذا الاتجاه، هذا بالإضافة إلى بعض الحوارات التي دارت أثناء فعاليات بعض الجامعات، ومنها التي دارت في جامعة الملك فيصل على هامش فاعلية يوم عمارة البيئة الثاني في العام (١٩٩٩م).

دار النقاش حول مهمات المهنة ودورها، وحول مسمى لهذه المهنة والمسؤول عنها، حيث ادعى الأغلب الأعم بأنه ليس بالضرورة أن يكون هنـــاك مهنة مختصة لكل فرع من فروع البناء، وبالتالي لا داعي لوجود مهنة تهتم بالأمكنة الخارجية وإلا كان هذا يعد انفصالاً يُضعف من المـــهنتين الأم العمـــارة والتخطيط العمراني، مدعين أيضاً أن الخروج من عباءة المعماريين هو ضرب من الفكر الجدلي الداعي إلى التشتت، وأنه نزوة فكرية جاءت من معمـــاريين غير مدركين لعواقب الأمور. بيد أن المدافعين عن الاحتياج للتخصص استمدوا وجهة نظرهم من الاحتياج الذي تفرضه حقيقة الوضع الراهن، ويقف أمامه المعماريين والمخططين في حيرة، خاصة في وجه التيار الدافق من المتغيرات الإنسانية الحياتية من جهة، ومواجهة بيئات جديدة لم يكن للمعماري أو المخطـط سابقة في التعامل معها من جهة أخرى. ومن هنا ظهرت مشروعات جديدة متعددة النشاطات في الأمكنة الخارجية المفتوحة مثل الواجهات المائية، مواطـن الكائنات الحية الفطرية النادرة (في المحميات الطبيعية)، المنتزهات والحدائق، الغابات ذات الطبيعة الحضرية. وبجانب طرحهم المتميز عن أن المتطلبات الحياتيـة اليوم اختلفت عن الأمس فإن التطور في كل مناحي الحياة بات سريعاً ومطرداً ومتنوعاً وبشكل لا يمكن معه الإلمام بكل شيء، وأن منطق الهيمنة لا يقـــدم الحلول بل بات التوجه نحو التخصص مطلباً وضرورة حتمية كما هو سائد في كل مناحي العلوم الإنسانية والمادية، وهو الأمر الذي دعا هنا إلى التعريـــف بحدود تخصص مهنة إعداد الأمكنة الخارجية.[٥]

بتغير الزمن تتغير احتياجات الناس كما تتغير الأمكنة لتلبي بعض هذه الاحتياجات، وبتغير الأمكنة تتبدل مجالات تهيئتها لتكون مواطن للعيش فيـــها، وأصبح ثمة تحولاً في مفهوم التعامل مع الأمكنة الخارجية الطبيعية والمحيطة أو داخل كل ما هـــو مشيد من صنع الناس. هذا التحول عني بالدعوة لتطويـــر مجال التخصص المهتم بإعداد الأمكنة الخارجية المفتوحة، وأطلق عليه مسمى عمارة البيئة. أحدث هذا التخصص بعض ردود الأفعال في المجال المهني، منـــها رفض بعض الممارسين له دون نقاش، وقبله الفريق الآخر واقعاً حتمياً وحقيقة قادمة واقعة، واجتهد بعض المختصين في توصيف ملامح وتوجهات هذا المجال (القديم المتطور)، وحاولوا صياغته باعتباره تخصص يعني بإعداد عمارة الأمكنة الخارجية دون أن يهمل علاقتها بعمارة الكتلة وداخلها، وإنـــه يضيـــف إلى المجالات الأخرى رؤية أعم وأشمل من خلال احترامه لتأثيرات القوى الطبيعية.

والمسألة البحثية التي تناقشها هذه الدراسة هي أهمية وجود مهنة تخصصها إعداد الأمكنة الخارجية المفتوحة، **وتدور حول أربع فرضيات هي:**

- أن هناك ارتباطاً شائعاً عند العامة والمختصين بدلالة كلمة البيئة معنىً وتعريفاً عن كل مكان داخلي أو خارجي، وعلى الرغم أن الكلمة لها ارتباط بكل أماكن ممارســـة السلوك الإنساني في أي مكان، إلا أن البيئة مفهوم يكاد يكون حميم الارتباط بكل الأمكنة الخارجية المفتوحة حـــول وبـــين البنـــاء الطبيعي والمشيد بمعرفة الناس.

- أن لكل موطن بيئي علوماً أساسية خاصة به، ومجالات بناء جديدة، وممارسين، ودراسات تهيئة وأسس للممارسة، وفرض الاعتراف بالبيئة كدلالة عن الأمكنة الخارجية المفتوحة ظهور مجال ممارسة جديد له تمايزه وتفرده.

– أن لكل مهنة جديدة مسمى من الضروري أن يتطابق في وصفه مع خصائص وتوجهات هـذه المهنة، وبما لها من ارتباطات علـى المستويين النظري التعليمي الدراسي academic field والحرفي المهني professional field المرتبط بالواقع العملي التطبيقي في الحياة العامة، وهو الأمر الذي يدعـو إلى البحث عن مسمى لتخصص إعداد الأمكنة الخارجية المفتوحة.

– أنه بالضرورة أن لكل ممارس مهني مسمى تابع لخلفياته المعرفية العلمية والثقافية من جهة ولاختصاصاته وممارساته الحرفية من جهة أخرى، وهـو الأمر الذي يدعو إلى البحث عن مسمى واضح لممارس مهنة إعداد عمارة البيئة.

٣. جدلية كلمة البيئة– عن المعنى والمحتوى المكاني

يناقش هذا المبحث في صورة استقرائية الفرضية الأولى المعنية بوجود ربط بين كلمة البيئة كمعنى ومحتواها ممثلاً في الأمكنة الخارجية المفتوحة وذلـك من خلال ثلاثة موضوعات: أولاها– يشرح معنى كلمة البيئة بشكل عام وعند المختصين في مجال مهنة البناء، وثانيها– يقدم المحتوى المكـاني وبـالتحديد الأمكنة الخارجية المفتوحة، وثالثها– يطرح العلاقة المباشرة بين كلمة البيئة والمحتوى المكاني (الأمكنة الخارجية المفتوحة).

٣. ١ البيئة في القاموس وعند المفكرين

البيئة environment هي "الكل (أو جزء) مـن كوكـب الأرض عندما يعمل كوسط حيوي يضم كل الكائنات الحية والماء والهواء والجمـاد (أي كل ما خلقه اللّه سبحانه وتعالى)، هذا الوسط بكل ما يحتويه يعمل وفق نظام إلهي وقوانين كونية وعقائدية تدوم بدوام الحيـاة"[٦]. وفي قـاموس البيئـة هي"الوسط الفيزيائي والكيميائي والبيولوجي الذي يحيط بالكائن الحي"[٦]. وموطن الكائن الحي habitat هو"القسم الفيزيائي الذي يعيش فيـه الكـائن الحي"[٩]. وفي معجم الجغرافيا هي "محيط مادي: التربة والنبات plant، والحياة البرية/ الفطرية، والجو، وأن التأثير البشري على البيئة هو أحد الاهتمامـات الرئيسة لعلماء الجغرافيا خاصة، وأن التدخل البشري غالباً ما يكون بمقدوره أن يخلق المشكلات مثل تُسببه بالتلوث وبتحات التربة، وانقـراض الأجنـاس وانتشار المناطق المدنية. بمعنى أوسع لا تستعمل عبارة بيئة لوصف المحيط المادي للناس فقط، بل الاجتماعي أيضاً، كالثقافة، واللغة، والتقـاليد، والأنظمـة السياسية". [٩]

كما تعرف البيئة في قاموس وبستر الوجيز بأنها "١– الشيْ الذي يحيط (يلتف– يطوق) الكل (في) مدار محاط ومحدد. ٢– التركيب المناخي، تأثـير التربة، العوامل الحيوية المؤثرة على الحياة البرية في مجتمعات الكائنات الحية وفي النهاية تحدد أشكالها وبقائها بعـد زوال الحيـاة. ٣– مجمـوع الحـالات الاجتماعية والثقافية المؤثرة على حياة الفرد والجماعة"[٢٠]. وعرفها علماء الاجتماع بأنها "الوسط الذي يحيا فيه مجموعة من الناس ويمارسون نشاطاتهم وفق ما هو مقرر لها من نظم وتشريعات وقوانين، وهي تؤثر على من يحيون خلالها من جهة وهم يؤثرون فيها بالعكس أيضاً سلباً أو إيجاباً". [٨]

ويعرف المعماريين البيئة بكونها "الصورة النهائية للوسط المرئي المحسوس لمكان محدد في زمن محدد. يتميز هذا الوسط بأنه ذو بيئة طبيعية خاصة وملامح متجانسة وتكيف نسبي بين عناصر المكان ذاته والعوامل الطبيعية الأخرى التي من صنع الإنسان المؤثرة على المكان، وكل ما سبق هو نتيجة لتفاعل مستمر ورد فعل إيجابي ومتحول ويسعى إلى تحقيق التوافق بين القوى الطبيعية والمصنوعة من جهة وطبيعة المكان من جهة أخرى."[٥]

٣. ٢ المحتوى المكاني- الأمكنة الخارجية المفتوحة

يجب الفصل بين بيئة المدن (داخل النطاق العمراني) وبيئة المناطق المفتوحة الطبيعية (خارج العمران)، ويطلق على البيئات الخارجية المفتوحة في المدن مسمى الفراغات العمرانية [١][٢٣][٢٤]. مهما اتسعت مساحات هذه الفراغات تظل في نهاية الأمر محددة بمجالات عمرانية مبنية محددة بارتفاعات وأبعاداً معروفة، بينما تتميز المناطق الخارجية المفتوحة، أي خارج المدن، بأن لها ملامح طبيعية بعيدة عن العمران المبني، الذي صنعه الإنسان، وهذه المناطق يمكن وصفها بأنها "تلك التمديدات من الأراضي المنبسطة أو ذات التضاريس التي تتميز بعدم وجود ملامح حدودية لها، لا يوجد بها عمران كثيف من صنع الإنسان، تعمل كمجال حيوي لمعيشة الكائنات الحية على الأرض."[١٨]

تعرف البيئة الطبيعية عند علماء البيئة الطبيعة بأنها "الوسط المكاني، لبعض الناس، الذي يهيئ حيزاً محدداً ومعروفاً لمعيشة هؤلاء الناس، وقد يكون هذا الوسط مفتوحاً أو مبنياً أو كلاهما معاً، وهذا الوسط يؤثر فيه الناس ويتأثرون به في علاقة تبادلية متوافقة، وهو يتضمن ماله علاقة بالاجتماع والثقافة والعمران"[١]. أما البيئة المشيدة فتغلب عليها مظاهر التدخل الإنساني، فأي أرض بكر طبيعية لم يصل إليها إنسان للاستيطان لها مظاهرها الناشئة من تحكم قوى الطبيعة فيها (المناخ العام، شكل سطح الأرض، التربة، المياه، الغطاء النباتي، الحياة الفطرية). ويأتي الإنسان بالبناء فيغير وجه الأرض، ويتبعه تغير في التأثيرات الطبيعية (المناخ المحلي والجزئي، تغير شكل الأرض، وظهور خط السماء، وتثبيت التربة، وتطويع المياه، وتصميم النباتات، وتغير أنماط الكائنات الحياة البرية- الفطرية).

بمرور الزمن وبتدخلات الإنسان تغيرت مناظر الأرض بتغير عناصرها ومكوناتها وترتيبها في المكان، كما تغيرت نتيجة لإضافة عناصر متعددة من صنع الإنسان مثل: المباني والكتل، الطرق والمرافق. ولكن ظلت بعض من هذه الأمكنة تتمتع بصفة الطبيعية، والتي حاول الإنسان الحفاظ عليها كثيراً جداً كالسهول والوديان، الغابات والواحات، الصحاري والمراعي. وأطلق عليها الإنسان البيئات الطبيعية لتميزها بكل ما خلقه اللّه على الأرض منذ البدايات المبكرة لنشأة الكون، كما تميزت أيضاً بعدم وجود تدخلات قوية للإنسان كما هو واضح في بيئات المدن والمناطق الحضرية. إذن يمكن القول أن البيئة الخارجية هي المناطق المفتوحة في كل مكان على الأرض، سواء الطبيعية في الصحراء والهضاب والسهول وشواطئ البحار والأنهار والمحيطات- تلك المخلوقة من البدايات المبكرة لنشأة الكون، أو التي تصف أيضاً الفراغ المتصل بالبناء المشيد والناتج من تشكيلاته في المدن والقرى (الحضر والريف) بالقرب من المعمار المحدود كالمسكن أو الفراغ المكون للمحيط العمراني للمشروعات متوسطة وكبيرة الحجم والمقياس.

٣. ٣ العلاقة بين كلمة البيئة والمحتوى المكاني

تأتي كلمة البيئة عامة شاملة مرة وخاصة جداً مرات أخرى، فحينما تذكر الكلمة في معرض الحديث العام فهي تدل بداهة على المكان الذي يعيش فيه الإنسان وتربى فيه وشكل من خلاله وجدانه النفسي والعاطفي والجسدي متأثراً بعادات المكان والناس. أما حينما تطلق هذه الكلمة في ميدان التخصص فهي تعني دلالات محددة حيث تصف الطبيعة أو مكان التربية والسلوك أو حتى عمارة المكان، وهي كل ذلك مجتمعاً، بالإضافة إلى إمكانية استعارتها لتصف البيئة الخارجية لمكان العمارة والعمران في الأمكنة الخارجية، وتفهم البيئة أيضاً على أنها الأمكنة الخارجية الطبيعية والاصطناعية المفتوحة على الأرض. أما الأمكنة الخارجية المفتوحة بشكل عام فيميزها وجود ثلاثة حدود: أولها- الأرض الحد السفلي مبيناً البعدين الأفقيين للمكان (الطول والعرض) وتعمل فيه العديد من القوى (منها تشكيلات سطح الأرض العليا كالطبوغرافيا والوسطى كالتربة والسفلي كالجيولوجيا، الماء، الغطاء النباتي الأرضي)، ثانيها- السماء سقف المكان وحده العلوي، ثالثها- جوانب المكان ومحددات تشكيل الفراغ بينها وتمثل البعد الثالث للمكان (الارتفاع)، قد تكون حدوداً طبيعية مثل: الجبال والهضاب، أو حدوداً اصطناعية مثل: الكتل أو الأبنية أو الأسوار أو الأحزمة الخضراء.

والبيئة كبناء تعني بأنها كل مكان داخلي أو خارجي له حدود وملامح تميزه مهما تغير حجمه أو نطاقه، تعمل داخل هذا البناء قوى إلهية خلقها الله سبحانه وتعالى منذ نشأة الأرض هي كل من قوى الطبيعة وقوى الإنسان وقوى الكائنات الحية التي تعيش في السماء وعلى الأرض وفي الماء.

يميل الطرح السابق نحو إطلاق مصطلح (البيئة) على المحيط الحيوي الخارجي لمعيشة الناس، وهنا يمكن أن يكون مدلول مصطلح البيئة هو المرادف لكل من: ١- الحيز الخارجي بكل ما يحتويه هذا الحيز من أشكال للحياة، من كائنات حية (على قمتها الإنسان ومعه النبات والطير والحيوان)، وما يحدد به هذا الحيز من أشكال طبيعية (جبال وتلال، سهول ووديان، واحات، بحار وأنهار، سماء)، أو عمران من صنع الناس (حوائط، مبان، أسوار، بنية أساسية تحتية أو فوقية) وما به من ماء وهواء. ٢- الأطر الاجتماعية- الثقافية والاقتصادية والسياسية والتشريعية- التنظيمية بكل متغيراتها وفق المكان والزمان.

خاتمة القول يمكن اعتبار كلمة (البيئة) كمصطلح تعبير دقيق عن كل الأمكنة ذاتها (الطبيعية والمشيدة المصنوعة)، التي تكون ضمن وسطين أساسيين: أولهما- الوسط المكاني لأرض بكر لم يقم الإنسان بالبناء عليها أو استيطانها، ثانيهما- الوسط المحدد لكل الأمكنة التي تقع بين والمحيطة بالبناءات المشيدة بواسطة الناس، وفق توجهات معروفة.

٤. الاحتياج لمهنة لإعداد الأمكنة الخارجية المفتوحة

يمكن القول بأنه لا يوجد في العالم العربي حتى الآن حد فاصل قوي بين المهن المعنية بالبناء، فهناك التخصص العام والتخصص الدقيق لمجالات العمارة والتخطيط، وأيضاً هناك متخصصين في كل مجال وكلهم من المفترض أنه يعمل وفق تخصصه وما تعلمه، وبما لديه من معرفة وعلم وموهبة ومكتسبات الممارسة والخبرة. تطرح الدراسة الحالية بعض التساؤلات هي هل بالفعل كل متخصص يعمل في مجاله؟ وهل المجالات بالفعل منفصلة بحيث

لا يشارك أحد المتخصصين الآخر في تخصصه؟ وإذ كان هناك بعض التخصصات الراسخة نتيجة لقدم التعامل معها مثل العمارة والتخطيط، فما هو الحال مع التخصصات الأخرى التي بدا أن لها أهمية في الوقت الحاضر مثل التصميم الداخلي وعمارة البيئة، وهل هناك احتياج فعلي لتخصص مستقل يهتم بإعداد الأمكنة الخارجية المفتوحة؟ وما هو المسمى المناسب لهذا التخصص؟

٤. ١ الارتباط بين مجالات مهنة البناء- مصطلحات ودلالات

ظلت مهنة البناء منسوبة للمعماري الذي يقوم بالتعامل مع الكتلة والفراغ حولها. الأغلب الأعم من المثقفين والعامة لديهم فكرة واحدة أن كل ما له علاقة بالبناء هو مهندس معماري، بل إنه داخل أصحاب المهنة ذاتها من لا يعرف الفرق بين مخطط المواقع والمصمم العمراني ومصمم البيئة الخارجية. فالمهندس المعماري هو الذي يقوم بعمليات البناء على الأرض، وكان يطلق عليه في الماضي مهندس مبان، حتى الإنشائي الذي يقوم بإنشاء الكباري والأنفاق والسدود هو مهندس مبان. لم يختلف هذا التصور في الحاضر عنه في الماضي، فالثقافة العامة عن مهنة البناء في العالم العربي ما تزال تحبو وفي طور النمو، فكل تاريخ الإنسانية يشير بأن الإنسان خُلق ليبني، ولعل المجال هنا لا يتسع لذكر إسهامات الشعوب في تطور البناء من المصريين القدماء (وفيهم أمنحتب أول مهندس معماري في التاريخ) إلي بلاد ما بين النهرين والآشوريين إلى عمارة الإغريق والرومان والأوربيون والعمرة القبطية في الكنائس والأديرة وبناءات المسلمين في المساجد الجامعة والمساكن والأسواق والمدن. إلا أن البناء علا واتسع وتضخم وتنوع خلاله في كل مكان بناء الكتلة والفراغ، تصميم داخل الكتلة وخارجها. لم يحتاج الأمر في بدايته إلى تخصص ولم يُنادي حتى أحد بهذا (شأن كل شئ يبدأ صغيراً لا يلتفت إليه أحد وعندما يكبر تتهافت عليه كل الدنيا)، ولكن في تلك المرة استدعى الأمر فعلاً أن تنظم المسائل فالمدن كبرت واتسعت، وخرج الناس من المدن للفضاء الواسع، وتعامل مع قوى كانت موجودة لكن احتياجه لها تغير وتبلورت فكرته عن السيطرة عليها، كما استطاع بالعلم الذي وهبه الله أن يتعامل مع الرياح، أن يروض الطير والحيوان، أن يجري في البحر وينعم بخيره.

منذ بدايات القرن الماضي كان للمعماريين سلطة وسطوة (لم تزل وإن خفتت حدتها، أقصد السيطرة المهنية في المجال العملي)، فكان المعماري هو قائد فريق أعمال البناء، وأي عميل لديه مشروع يذهب به لمكتب المهندس المعماري، ويقوم المعماري بتوزيع المهام، فهو يحتاج لإتمام العمل إلى مهندسي الإنشاءات والكهرباء والصوتيات والإضاءة والصرف الصحي والتكييف والتصميم الخارجي والتصميم الداخلي. أما الآن فيمكن رصد أعمال مستقلة ذات علاقة بالاختصاصات المختلفة ويمكن للعميل أن يذهب مباشرة لصاحب التخصص ليأخذ استشارته في عمله الخاص.

انفصلت بعض الاختصاصات مثل العمارة والتخطيط والإنشاءات والأنظمة المتكاملة (الكهرباء والصوتيات والتكييف) والتصميم الداخلي وعمارة البيئة على مستوى العملية التعليمية. ولكن ظل الجدل والخلاف قائماً بين المعماريمتمسكاً بظنه أنه قادر على تصميم المدن والمجتمعات وليس الكتل فقط ومخططي المدن الذين يدعون هم أيضاً أن تصميم المدن وتخطيط المواقع حقاً خاصاً بهم. سبق المعماريين المخططين لحسن حظهم حال ظهور مجال يهتم بعمارة المدن هو التصميم العمراني بأن تخصصوا في هذا المجال وضموه لهم كعلم يهتم بالتصميم للناس. كما احتفظوا بمهمة تصميم المناطق محدودة الحجم

والمقياس، وهو مستوى صغير من التخطيط ما زال المخططين يعملون عليه حتى الآن. لكن حجة المعماريين أنه ما دام البعد الثالث قد ظهر (الارتفاع) فالأمر متروك للمعماري وإلا أصبح في الموضوع تعدي غير مقبول. منطقة المخطط هي التي تتضمن البعدين الأفقيين، وتوزيع الناس والأراضي، والبعد الثالث هو اختصاص المعماري.

خرج مهنيون آخرين عن سيطرة المعماري، وهم الذين يهتمون بتصميم الفراغ الخارجي، فالمعماري كان يصمم الحدائق والفراغ المحيط بالكتلة المصنوعة، ولكن بظهور علم يهتم بهذه الأمكنة يُطلق عليه باللغة الإنجليزية عمارة اللاندسكيب بدأ في الظهور ظهور تخصص جديد يهتم بإعداد الأمكنة الخارجية المفتوحة (واستخدام الكلمة الأعجمية دون ترجمة لاختلاف الترجمات العربية للكلمة في العالم العربي حتى أن هذا القسم في كلية الآداب وفي تخصص الجغرافيا يطلق عليه لاندسكيب كما هي)، وبدا أن هذا العلم يهتم في البداية بالجمال ودعمه في الأمكنة الخارجية التي تم تصميمها بالفعل من قبل المعماريين ومصممي عمران المدن، ثم تطور ليبدأ في الاشتراك مع المعماري والمصمم العمراني في إعداد الأمكنة الخارجية المفتوحة في المشروعات التي تتضمن أمكنة خارجية لها صفة السيادة والسيطرة في مشروعات المدن وخارج المدن. ومن هذه المشروعات القرى السياحية، الأماكن المواجهة للبحر، المراكز الترفيهية المفتوحة، الأسواق الشعبية، المنتزهات والحدائق، المنتجعات الصحية، وغيرها. ولعل الاختلاف بين علوم البناء الأساسية العمارة وتخطيط المدن والتصميم الداخلي يبدو واضحاً، ولكن حتى الآن لا تبدو ملامح الاختصاص الدقيق واضحة بين مستويات البناء الأخرى مثل التصميم الخارجي أو عمارة البيئة وعمارة اللاندسكيب.

يمكن القول أنه ما زال الارتباط قوياً بين مجالات البناء، فالانفصال ضروري لبيان مهمات التخصص والتركيز عليها معرفياً ولكن عند الممارسة في الواقع العملي يظل الاحتياج للتكامل والارتباط مطلوباً. ولتخصصات البناء تعريفات متعددة بعضها يبين الارتباط بينها، نذكر منها هنا بتصرف الآتي:

- تعريف (راسكن) Ruskin للعمارة architecture أنها تصميم البيئة شاملة المباني والأمكنة المفتوحة واللاندسكيب. وهو تعريف تعدى المقصود بتصميم الكتلة إلى المعنى العام لعمارة البناء. بينما كانت تعرف العمارة بأنها فن علمي لتصميم البناء مع الأخذ في الاعتبار الجوانب الجمالية والوظيفية أو المعايير الأخرى. ومن الواضح في التعريفات السابقة أن تخصص العمارة لا يطلق على تصميم الكتلة المفردة دون المحيط الحيوي بها، وذلك لأن كلمة العمارة في ذاتها لها معنى أكثر رحابة من المستعمل حالياً على مستوى الممارسة المهنية أو على مستوى تعليم طالب العمارة من تركيز على الكتلة المبنية كأساس والالتفات إلى المحيط الحيوي المتمثل في الأمكنة الخارجية المفتوحة كعنصر ضروري ولكنه مكمل، وهو الأمر الذي يحتاج أيضاً إلى مراجعة (وإن كان حصر تخصص المعماري في تصميم عمارة الكتلة فقط يعد حلم لا يمكن تحقيقه).

- يعرف تخطيط المدن city planning بأنه تخصص مستقل له علاقة برسم استراتيجيات التنمية على مستوى كبير وشامل، وبتوزيعات استعمالات الأراضي على مستوى أقل، وهو تخصص تظهر فيه ملامح العلاقة بين الأمكنة المبنية والمفتوحة ولكن على مستوى الاستراتجيات والتوزيع، ولكن تبدأ تلك العلاقة في الظهور والتصنيف بشدة على مستوى أقل هو مستوى تخصص تصميم وتخطيط المواقع site plannin and design الذي يعرف بأنه فن ترتيب

وتنظيم العلاقة بين الكتلة والفراغ لدعم متطلبات مستعمليها[١٨]، وهنا تظهر أهمية دراسة العلاقة بين الكتلة والفراغ، كما تظهر أهمية دراسة العلاقة بين الفراغ والفراغ المجاور له، ويهتم مصمم المواقع بتصنيف الفراغات من حيث التعرف على نوعياتها وأشكالها وتدرجاتها وعلاقاتها الهيكلية ببعضها وبالبناء من حولها، ولكن على مستوى محدود الحجم والمقياس في المناطق العمرانية. [٢٣][٢٤]

- أما التصميم العمراني urban design فهو حلقة الوصل بين العمارة والتخطيط بعد إدخال عامل الزمن في الاعتبار، بمعنى أنه التعبير الحسي (والمرئي على وجه الخصوص) للعمران مضافاً إليه بعد الزمن، فالمستعمل للمكان يدركه من خلال متتابعة حركية داخل الفراغات المكونة في ترابط مع الكتلة، كما يعرف بأنه مهارة البناء الواعي الملتزم بما حوله، وهو المجال الذي يحاول الوصول إلى التعبيرات المهمة عن ثقافة وتطلعات المجتمع، والمصمم العمراني يهتم بتركيب عمران المدينه بعنصريها الكتلة والفراغ لإبداع تشكيل كفء يدعم الجمال ويحقق متطلبات الجماعة من حيث دعم الطابع المحلي لعمارة المكان[١١][١٢][١٣]. وجدير بالإشارة إلى أن التصميم العمراني يهتم بعمارة المدن وتشكيلها الفراغي على مستوى البناء المصمت (الكتلة) والبناء المفتوح (الفراغ) سواء في مناطق التنمية الجديدة أو في المناطق ذات القيمة.

- كما ظهرت تخصصات أخرى وإن لم تنتشر في تخصصات مستقلة مثل تصميم البيئة environmental design الذي بدأ ظهوره الفعلي في العام (١٩٥٠م) وكان وثيق الصلة بتصميم الكتلة لمواجهة مؤثرات الطبيعة، مثل تصميم المباني ذات الحوائط السميكة أو التي لها أفنية داخلية لمواجهة المناخ. كما ظهر مصطلح آخر عمارة البيئة أو العمارة الخضراء environmental or green architecture في الفترة ما بين الأعوام (٦٠ -١٩٧٠م) وتركزت مهمته في عمل البناء المتوافق مع البيئة، وكان تركيزه على المعالجات التي يحتاجها المبنى ومتصلة بالبيئة مثل معالجات الاستفادة من الطاقة الشمسية بحيث لا تؤثر بالسلب على البيئة. [١٢]

- أما عمارة اللاندسكيب Landscape Architecture فتعرف بأنها فن وعلم إبداع (بديلاً عن كلمة creation الأجنبية، لأن الخلق من صفات الله سبحانه وتعالى فقط) إعداد الأمكنة الخارجية التي في الهواء الطلق وجعلها بيئة لمعيشة الناس [١٦]. وعادة ما كان عمل مصمم عمارة اللاندسكيب يبدأ بعد انتهاء كل من المعماري ومصمم المواقع والمصمم العمراني للعمل في الفراغات المستقطعة أو المكملة أو الناتجة من عملية التصميم للبناء للمصمت. ولكنه بعد ظهور الاحتياج إلى مشروعات تصمم بكاملها في البيئات الخارجية مثل عمارة الشواطئ وحدائق الحيوان والمنتزهات من جهة، والتعرف على التأثيرات الطبيعية لخصائص هذه البيئات والتوسع في علوم التعامل معها مثل دراسة الماء والنبات والحياة الفطرية وتشكيلات سطح الأرض بات أن هناك اتساع في مجال عمارة اللاندسكيب من مجرد دعم الجمال في المكان بعد إعداده إلى البدء في إعداد المكان على ضوء فهم تأثيرات الوظيفة وقوى الطبيعة وقوى التأثيرات الإنسانية. وهنا بات الاحتياج إلى تخصص يهتم بذاته بالأمكنة الخارجية المفتوحة، وتتدرج مقاييسه بين التخطيط وتصميم وتخطيط المواقع والصميم العمراني وتنسيق المواقع (مستوى التفاصيل) ولكن مع التركيز بشدة على عمارة الأمكنة الخارجية المفتوحة.

٤. ٢ عمارة البيئة– عن المفهوم والارتباط

في كل ما سبق جاءت متطلبات الناس في المقام الأول، عَرف أيضاً أنها علوم وفنون، كما أنها علاقة بين الكتلة وما هو داخل الكتلة، وما هو حول الكتلة، والمحيط بالكل، إذن فالمسألة متعلقة بالتنظيم والترتيب، بالكتلة والفراغ، بالجمال والتنمية والحفاظ، وكلها أمور لا يمكن الفصل بينها بأي حال من الأحوال، حتى لو أن ذلك الفصل اعتمد أسلوباً لحل المشاكل فإن الفكر المجرد يرفض فهم كل عملية بمفردها، فمن غير المعقول أن يصمم المعماري الكتلة دون فهم المحيط الخارجي لها، أو ينسى المصمم الداخلي أن فراغه الداخلي ينظر لفراغ خارجي له مؤثرا ته وضغوطه، وأيضاً هناك حاجات تتعدى مسائل التعامل مع عمارة المدن مثل: المحافظة على الغابات ومسائل التصحر، أو تقييم موارد البيئة الطبيعية، أو إعداد المحميات الطبيعية،وذلك يدعو إلى البحث عن تخصص لإعداد الأمكنة الخارجية يتلاءم مع باقي تخصصات البناء الأخرى [٥٧]:

– ظهر أول اهتمام بإعداد الأمكنة الخارجية في العالم الغربي في العام (١٨٣٠م) بمعرفة (لودون) Loudon وكان أول استعمال للمصطلح landscape، وفي العام (١٨٢٨م) استخدم مصطلح Landscape painting بمعرفة (مايسون) Meson. ولما ابتعد المصطلح الغربي landscape عن المعنى الفعلي لمجال الممارسة المهنية ليُفهم في الغرب على أنه مجال التعامل مع الأراضي بالتنسيق والزراعة أضيفت كلمة عمارة architecture ليعبر عن التعامل مع المجال واستعمل لأول مرة مصطلح Landscape architecture في العام (١٨٦٢م) بمعرفة (أولمستيد) Olmsted عند تصميم الحديقة المركزية لمدينة نيويورك، وتلا ذلك ظهور الجمعية الأمريكية لمعماري اللاندسكيب American Society of Landscape Architecture في العام (١٨٩٩م) لتجعله مجالاً للممارسة قبل أن يكون له قاعدة تعليمية. أما أول بداية لمنهج دراسي فكان الذي بدأته جامعة هارفارد Harvard في العام (١٩٠٠م)، وأنشئت أول مدرسة في ماساتشوستس Massachusetts في العام (١٩٠١م)، وبدأ نشاط المركز البريطاني لعمارة اللاندسكيب The British of Landscape Architecture في العام (١٩٢٩م)، بينما بدأ نشاط المركز القيدرالي الدولي لعمارة اللاندسكيب International Federation of Landscape Architecture في أمريكا في العام (١٩٤٨م).

– حتى الآن، في العالم العربي لا يوجد توثيق دقيق مكتوب لبدايات تداول كلمة اللاندسكيب سواءً على مستوى الممارسة المهنية أو على مستوى مدارس تعليمه، حيث تباينت الآراء (وما زالت) حول البحث عن مسمى عربي لمجال إعداد الأمكنة الخارجية المفتوحة. أما تنسيق المواقع فهو المصطلح الشائع للترجمة العربية لهذا المجال الغربي المعروف باسم عمارة اللاندسكيب landscape architecture. بمرور الوقت أدخلت حديثاً بعض المسميات الأخرى في محاولة للتعريب منها، عمارة تصميم البيئة، التصميم العمراني البيئي، العمارة البيئية، فن تطوير مناظر الأرض داخل المدن أو في الريف، التنسيق الحضري العمراني، مناظر الأرض, تصميم المناطق الخارجية، وكله تعريب يبتعد بشكل محدد عن مضمون هذا المجال، وأيضاً لا توجد أي مساهمات مكتوبة في هذا المجال؛ عدا المقالات المكتوبة في الدوريات وهي محدودة جداً، ولا يمكن الرجوع إليها لتكون مرجع تاريخي وثائقي. ولعله على ضوء التعاريف السابقة لمجالات المهنة، بالإضافة إلى إسهامات الغرب في هذا المجال يمكن تحديد بعض ملامح وأهداف هذا التخصص ومسؤولياته.

ويهدف العرض التالي بداية إلى بيان الارتباط بين كلمات البناء والعمارة والأمكنة الخارجية والبيئة، وطرح مدى إمكانية الربط بينها في مسمى قد يكون تعبيراً عن مجال المهنة المهتمة بإعداد الأمكنة الخارجية:

- يمكنم تتبع كلمة عمارة في القرآن على النحو الآتي: "وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب" (هود.. الآية رقم ١٦). وجاءت بمعنى القعود والجلوس في مكان محدد: "ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله ...، "إنما يعمر مساجد اللّه من أمن باللّه وباليوم الآخر"، "اجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن أمن باللّه واليوم الأخر" (التوبة..الآيات ١٧و١٨و١٩). كما جاءت كلمة البناء في القرآن الكريم لتصف بناء النفس البشرية: " أفمن أسس بنيانه على تقوى من اللّه ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هارٍ فانهار به في نار جهنم واللّه لا يهدي القوم الظالمين" (التوبة.. الآية ١٠٩).كما جاءت لتصف البناء بأنه سقف أي جزء من المكان الذي يضم الإنسان خلاله: "الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا للّه أنداداً وانتم تعلمون" (البقرة .. الآية ٢٢). وجاءت بمعنى محتوى "قالوا أبنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم" (الصافات .. الآية ٩٧). كما جاءت بمعنى محتوى متعدد الطوابق "لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار وعد اللّه لا يخلف اللّه الميعاد" (سورة الزمر..الآية ٢٠). وهنا يمكن استعارة مفهوم البنية structure بمعناها الخاص كواحدة من المكونات الصغيرة التي تدخل في تكوين التركيب الأكبر، وتؤثر على وظيفته، لتشرح مسمى الأمكنة الخارجية المفتوحة ضمن معنى البناء الشامل. فالبناء تكوين متراكب ومتحد، متنام ومتدرج، ومتعدد الخطوات وصولاً إلى الناتج النهائي لتكون تعبيراً دقيقاً عن حالة البناء كله. ولما انتهى الباب الأول بوجود صلة صريحة بين البيئة معناً ومحتوى بالأمكنة الخارجية المفتوحة إذن يمكن اعتبارها أنها جزء مهم من البناء الشامل. **ومن هنا يمكن تأكيد نتيجة مهمة هي**: أن كلمة البيئة تعد تعبيراً دقيقاً وشاملاً عن الأمكنة الخارجية المفتوحة.

- تعني كلمة عمارة عند العرب كما يشير (بن يوسف) " أنها نقيض الخراب، والكلمة مشتقة من العُمْر والَعْمرُ وهي اسم لمدة عمارة البدن في الحياة، وقد تدل العمارة كفعل على خطط البناء، أو كحدث مثل الزيارة أو الإقامة، أو كتعبير عن الجماعة التي بها عمارة المكان (السكان)، وجاءت في صفة الاستفعال وهي تعني التكليف، كما جاء الاستخلاف يعني تكليف اللّه الإنسان بتحمل أمانة الأرض وهي الخلافة فيها. إذن فالعمارة وفقاً لما سبق لا تنحصر في البناء المادي فقط، بل كل ما من شأنه صلاح البناء والزراعة والاقتصاد، وتشمل عموماً كذلك النفوس والعواطف على غرار زيادة الود التي سميت عمرة وعمارة"[١١]. وفي إطار هذا التعريف الجامع لكلمة عمارة وباعتبار أن مكان السكن أو عمارة المكان يقع ضمنهما الأمكنة الخارجية المفتوحة ضمناً، فإنه يمكن الوصول إلى **نتيجة ثانية هي**: أن تعبير عمارة الأمكنة الخارجية المفتوحة يمكن أن يكون انعكاساً مباشراً لمجال البناء الخارجي.

بينت التعاريف السابقة التداخل الواضح بين تخصصات مهنة البناء،كما بينت عدم وضوح بعض المسميات لمفهوم التخصص بداية من تخصص العمارة والمعروف شيوعاً بأن مهمته الأساسية هو تصميم عمارة الكتلة والمحيط بها، على الرغم من امتداد معناها المعاصر ليشمل أكثر من تصميم الكتلة. أما بالنسبة لكلا المصطلحين تصميم البيئة وعمارة البيئة فهما تخصصين لهما ارتباط مباشر بتصميم الكتلة والمحيط البيئي المباشر لها، كما أن مصطلح

اللاندسكيب على ضوء كتابات المختصين المعاصرين أكثر تعبيراً عن مجال تخصص إعداد الأمكنة الخارجية المفتوحة. وبناء عليه يمكن طرح توجهان للنقاش للوصول لمسمى يتلاءم مع التخصص ولا يتداخل مع المصطلح الغربي، هما: ١- اعتماد المسمى العربي **عمارة البيئة** مصطلحاً للتخصص المعني بإعداد الأمكنة لاحتوائه على العمارة والبيئة معاً معنىً ومضموناً لوظائف التخصص، ولكن مع الاعتماد على المصطلح عمارة اللاندسكيب Landscape architecture دون ترجمة لقربه الشديد من الواقع العملي، وتصبح النتيجة تعريب المصطلح وليس ترجمته، ٢- اعتبار أن مجال **العمارة** إطاراً شاملاً لكل تخصصات البناء، وهي أساس التفكير في صياغة مسمى لكل تخصص على حدة بما يتناسب مع كل منها من الناحية العملية، فيصبح مسمى تخصص مهنة تصميم الكتلة هو عمارة الكتلة، وتصميم داخل الكتلة هو العمارة الداخلية، وما هو خارج الكتلة في البيئتين الطبيعية والمشيدة عمارة الأمكنة الخارجية المفتوحة.

٥. ممارسة المهنة- مجالات الممارسة ودراسات التهيئة

يعني مفهوم الممارسة بالعمل المستمر في شيء خاص بذاته، و تعني ممارسة المهنة بالعمل وباستمرار في مهنة محددة بذاتها وإتقانها لدرجة يكتسب معها الفرد مهارة من نوع خاص تمكنه من تطوير قدراته وتحقيقُ أكبر قدر من الكفاءة في عمله. كل مهنة لها مجالات للممارسة، بعضها له علاقة بالمكان الذي تمارس فيه، والبعض الآخر له علاقة بحجم الممارسة، وبعضها له علاقة بنوع الممارسة المهنية والممارسين المهنيين والمعارف التي تمارس بها هذه المهنة. فالبناء يكون على أرض مكان محدد وبمقياس محدد ومعارف من العلم محددة. وتعني التهيئة في المفهوم العام عند الناس بتجهيز الشيء بحيث يصبح معداً للاستفادة منه وفق ما هو مطلوب بأعلى كفاءة واقتدار. وتهيئة المكان المخصص للحياة عليه تعني تجهيزه وتشكيله بما يحقق له فرصة للعيش فيه بأمان وراحة وانتفاع، بينما في مفهومها الخاص تقع ضمن مراحل أعمال التصميم والتنفيذ وصولاً إلى التشكيل النهائي للمكان.

٥. ١ مجالات ممارسة مهنة عمارة البيئة

منذ البدايات المبكرة للحياة على الأرض عرف الناس كيفية تهيئة البيئات التي يعيشون فيها، كان اهتمامهم بالمناطق المفتوحة يتزامن مع الاهتمام بالفراغ الداخلي الذي يمارسون فيه معيشتهم في السكن والعمل، ويميل الإنسان بفطرته الطبيعية إلى ترتيب بيئته وفق ما يحب. أما على المستوى المهني فهناك العديد من الشواهد الحضرية على مر عصور الإنسانية والتي ما تزال قائمة حتى الآن وتشير إلى ممارسة مهنة إعداد الأمكنة الخارجية المفتوحة، ومنها الحضارة المصرية القديمة عند وادي النيل، وحضارة ما بين النهرين، والحضارة الإسلامية، وحتى عصر النهضة. منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي بدأ التفكير في إعداد مع الأمكنة الخارجية المفتوحة باعتبارها فن علمي متعلق بمهارة وإبداع ويأخذ ملامحه كمهنة أطلق عليها عمارة اللاندسكيب بدون ترجمة المصطلح، وتعرفه الجمعية الأمريكية لمعماري البيئة (ASLA) على أنه مجالاً حرفياً معترف به للتعامل مع الطبيعة ويشمل تخطيط عماراتها وتنسيق أراضيها.

تركز هذه المهنة على تطبيق المبادئ العلمية والفنية- في مراحل البحث والإعداد والتنفيذ والتشغيل والمحافظة والصيانة على كل ما يخص المحيط البيئي المتصل بالبناءات المشيدة، أو يعمل خلالها بجانب مع دعم إمكانات التعامل مع الموارد. وهي مهنة ترتكز بقوة على علم التبيوء (الايكولوجي) ecology

والعلوم الطبيعية، كما تتعامل مع مسطحات محدودة أو كبيرة من الأراضي المفتوحة، والمدخل للتهيئة فيها هو التعامل مع الأرض المناسبة أو القابلة للتكيف مع أية استعمالات مستقبلية تحت محددات ثلاث قوى هي الطبيعة والناس والمكان.

تعددت مجالات ممارسة المهنة في العصر الحديث نتيجة لتغير المشكلات على الأرض من تزاحم وزيادة في عدد السكان، التلوث الناتج عن المرور الآلي والمخلفات، التعدي على البيئة، العمران المتزايد، وظهور نشاطات جديدة تتلاءم مع متطلبات وتوجهات الإنسان. ولعل أنماط المشروعات المعروضة الآن يمكن أن تعطي بعض التصور عن إمكانات الممارسة الفعلية لهذه المهنة، فعلى مستوى البيئة الطبيعية تمارس المهنة في مجالات مثل: مكافحة التصحر، المحافظة على وتنمية الغابات والواحات والمراعي، توفير أماكن الحماية الطبيعية للكائنات الحية النادرة (المحميات الطبيعية)، استصلاح الأراضي المستهلكة (مواقع المناجم، المحاجر)، التصميم بالنباتات شاملة المحافظة على الموارد المائية، الدمج بين تحقيق الأهداف البيئية واستراتيجيات التصميم. كما تعددت مجالاتها في البيئات المشيدة لتبدأ بدراسات مثل: دعم الطابع المحلي وتحقيق الجمال والحفاظ عليه، تأكيد تمايز الصورة البصرية والحسية للمدن والتجمعات البشرية، تصميم وتخطيط وتنفيذ وصيانة وتشغيل المناطق الترفيهية (المنتزهات والحدائق العامة والخاصة، الواجهات المائية، مدن الملاهي، المتاحف والمعارض المفتوحة)، تنظيم تشكيلات الفراغ العمراني بكل مقاييسه الحميم والوظيفي والفائق، والحفاظ عليها في مشروعات عمران المدن (السكن، التعليم، الصحة، الترفيه،المناطق ذات القيمة- التاريخية والأثرية والسياسية والعقائدية الدينية، الساحات والميادين)، معالجة التفاصيل فيما يخص كل من التشكيل الفراغي، ومواد إنهاء الأرضيات والبناء، وتغطية الممرات والمناطق المفتوحة بالمظلات، واستعمال الألوان، والنباتات، والمياه، ومناطق الجلوس، والخدمات ومسارات الحركة والاتصال للمرور الآلي والمشاة، والكباري ومواقف السيارات، والفراغات البينية. [١٩]

مع الأخذ في الاعتبار أن دراسات التهيئة للبيئات السابقة تختلف في العديد من النقاط منها، المكان والحجم والتخصص المهني. ويتطلب التعرف على مجالات ممارسة مهنة عمارة البيئة وتهيئتها دراسة ثلاثة أساسيات: أولها- مجال البناء أي المكان والمعروف بالموقع الجغرافي والموضع، ثانيها- مجال الحجم: المقياس ، ثالثها – مجال ممارسة التخصص المهني: المستوى.

أولاً- المكان: الموقع أو المجال الجغرافي

هو المجال المعروف بخطوط الطول والعرض الجغرافية ومستوى الارتفاع عن سطح البحر. وتتبدل ملامح الموقع الجغرافي الواحد (طبيعة بيئة المكان، الشكل والتشكيل، إمكانات الوصول، المحيط الحيوي)، لكن لا يتغير نسبياً موقع المكان، فهو راسخ ما دامت الأرض موجودة (بإذن اللّه)، إذن بسهولة يمكن الاستدلال من الناحية الجغرافية على أي مكان على سطح الأرض. ومكان المشروع هو الموضع، ويعرفه (لوري) Laurie بأنه "خاصية داخلية ملموسة لجزء من الأرض، ولهذا الجزء أبعاد محددة ومعروفة يمكن قياسها، كما يتمتع هذا الجزء من الأرض بملامح وخصائص معبرة عن البيئة الطبيعية بكل مواردها، ويحمل لذلك صفات متميزة خاصة به، وكل موضع يتصف بالثبات والاتزان المتحول (الديناميكي) الطبيعي المستمد من الضغوط المختلفة عليه، لعوامل متعددة عبر الزمن"[١٧]. إذن فهو مساحة من الأرض، ذات حدود وأبعاد معروفة، وسمات وملامح تفرضها ظروف المكان، يمكن الوصول إليه من خلال

قنوات الحركة المتصلة به والوقوف عنده والدخـــول إليه، يحيط به أشكال من البناء لها صفات يمكن دراسة تأثيراتها عليه وتأثيره عليها، يقوم عليه البنـــاء، فيغير من ملامحه، أما الأبعاد والمساحة فتظل أبداً ثابتة.

ثانياً- المجال المعتمد على الحجم: المقياس

يعد المقياس أداة نسبية لتسهيل معرفة الحدود الرقمية للنطاق المكاني لبيئة أي مشروع قياساً على حدود كل نطاق في التدرج الهيكلي لكتلـــة البنـــاء الطبيعيةأو-المصنوع، وتعتمد هذه الأداة على العلاقة التي تحدث بين متغيرين هما: نوعية المشروع (برنامج المكونات والنشاطات) وحجمه (عدد الســـكان ومسطح الأرض)، كل ذلك بهدف التعرف على:[ا] المجال المهني ومستويات التعامل (أهو عمارة، أم تخطيط مواقع، أم تصميم عمراني، أم عمارة بيئة، أم تخطيط بيئي، أم عمارة مدن؟). [ب] الاختصاصات المهنية المسؤولة عن التهيئة. فالمبنى المفرد قد لا يتطلب لتهيئته أكثر من مختص معماري، بينما تهيئة بيئـــة مراكز المدن قد يحتاج إلى مخطط عمراني للمواقع ومصمم عمراني ومعماري بيئي ومعماري كتل.[ج] برنامج النشاطات والمكونات. [د] دراسات الجـدوى الفنية والاقتصادية. وتكمن أيضاً أهمية التعرف على المقياس في تحديد متطلبات أي مشروع، حيث تفرض نوعية المشروع برنامج المكونات اللازم له وفقـــاً للنشاطات المطلوبة، فتختلف نشاطات حديقة المسكن الخاص عن نشاطات حديقة المجاورة السكنية عن حديقة الحي السكني، مع الأخذ في الاعتبـــار، أن النشاطات أيضاً تتغير بتغير بلد بيئة المشروع. بينما تحدد أحجام بيئات المشروع وفقاً لاحتياجات وإمكانات التنمية، فقط تختلف أعداد السكان ونصيـــب الفرد من مسطحات الاستخدام ومعدلات التزاحم والإشغال وفقاً لاشتراطات التنمية في كل بلد. على ضوء ما تقدم بالإضافة إلى بعض المتغـــيرات مثـــل: الأرض المتاحة والمتوافرة للبناء، موضع المشروع في نطاق محدود أو رحب، التمويل اللازم والمتاح يحدد موضع النطاق المكاني لبيئة أي مشروع.

ثالثاً – مجالات التخصص المهني: التخطيط والتصميم – المستوى

المستوى level هو الأداة التي يستعين بها المصمم لإعداد مشروعه بالاستناد إلى مجالات التخصص المهتمة بتهيئة البيئة، مع التركـــيز علـــى الأمكنـــة الخارجية المفتوحة. فالمجال تحديداً هو الأسلوب المهني المختص المختار لإعداد دراسات التهيئة وفقاً لمعارف وعلوم أساسية، ونظريات، وتوجهات، وأســـس عمليتي التخطيط والتصميم للبيئة الطبيعية والمصنوعة. تعددت المجالات التي تتعامل مع عمليات البناء منذ البدايات الأولى للحياة، بدأت بالعمارة والتخطيـــط العمراني، ثم دعت الضرورة الملحة لظهور مجال يهتم بالعلاقات بين الكتلة والفراغ من منظور مرئي. وتخطيط المواقع اهتمامه بالترتيب الفراغـــي لعنـــاصر المكان بما يدعم متطلبات المستعملين. ثم ظهر المجال الذي يربط بينها على ضوء فهم سلوكيات الناس والاعتماد على أن الفراغ تابع لنوع النشاط ومـــن ثم كان التصميم العمراني هو الجسر الواصل بين العمارة والتخطيط، كما يبدو علم عمارة البيئة ليلبي احتياجات التعامل مع البيئة المفتوحة من منظور دراســـة الطبيعة وتأثيراتها، مع العلم بصعوبة الفصل بين عناصرها.

٥. ٢ دراسات التهيئة في مهنة عمارة البيئة

تتطلب مسألة إعداد الأمكنة الخارجية المفتوحة ظهور تخصص مهني ارتبط اسمه بالعمارة ضمن مفهوم البناء والبيئة باعتبارها مصطلحاً دالاً على الأمكنة الخارجية، ومجاله هو التصميم الخارجي the exterior design للأمكنة المفتوحة. والتهيئة هي عملية تحضير المكان ليلبي احتياجات المشروع المطلوب تحقيقه، وهي تابعة لفهم متطلبات واحتياجات الناس وإمكانات المكان ولا يقوم على التوفيق بينها إلا مهني متخصص ذو دراية مبنية على دراسة وممارسة، فهو يبني مداخل حلوله على فهم واع لتدرج خطوات التهيئة وتلاؤمها مع المكان والحجم والتوجه المهني. تتضمن دراسات التهيئة مستويين ما هو على المستوى النظري المكتبي أو الميداني، والآخر المعني بتهيئة البيئة على أرض الواقع. وتتشابه منهجيات تهيئة البيئات مهما تغير المجال المكاني أو اختلف النطاق المعتمد على الحجم، لكن تختلف طبيعة الدراسات ومتطلبات كل منها باختلافهما.

أولاً – دراسات التهيئة في العمل المكتبي

تتكون منهجية التهيئة على المستوى النظري من مرحلتين أساسيتين تقوم بهما المكاتب والهيئات المتخصصة: أولها- دراسات التمهيد والمسح الميداني الأولي، وثانيها- دراسات العمل التحضيري المتخصص، وكلا الدراستان تتدرجان بداية من: إعداد المقدمة، ثم التمهيد للتعرف على المكان خلال الزيارات الميدانية المتتابعة، تحليل المواقع، إعداد برنامج المكونات، صياة فلسفة التصميم، إعداد المخطط العام، فالمخطط التفصيلي، ومستندات التنفيذ وتتكون من: الرسوم التنفيذية ، وحساب الكميات، ودراسة التكاليف، وطرح العطاءات، وعمل العقود.

ثانياً – دراسات التهيئة: التنفيذ على أرض الواقع

بمجرد توقيع العقد للتنفيذ على الجهة الاستشارية البدء في إجراءات الإعداد للإشراف في الموقع، وعليها مهمتين هما: الاشتراك في تجهيز الموقع والإشراف على رسوم التشغيل. وتقوم الشركة المنفذة بالذهاب إلى الموقع لاستلامه بمحضر رسمي، وتبدأ بتجهيزه لإقامة مهندس الموقع (أو المهندس المقيم- مدير المشروع)، ومجموعة المهندسين المساعدين والملاحظين الفنيين والإداريين (أمين المخزن، المدير المالي) وعمال الشركة المنفذة، نقل المعدات (كالرافعات والخلاطات)، التأكد من وصول مصدر للمياه والكهرباء للموقع، توريد لوازم الأعمال وفقاً لبنود حصر الكميات وتخزينها، البدء في التنفيذ بتحديد أبعاد الموقع الفعلي بالاستناد على لوحة المحاور والأبعاد، بيان المناسيب من نقطة معتمدة داخل الموقع (مبني قائم أو رصيف) أو من خارج الموقع (الطريق الرئيسي) وتكون هي نقطة الأساس (الصفر) ومنها تحدد المستويات، وبعد ذلك يبدأ ترتيب تنفيذ بنود الأعمال بما يتوافق مع طبيعة كل مشروع. وتحتاج بعض المشروعات إلى عمل بعض رسومات أكثر تفصيلاً لأجزاء من الموقع لمواجهة بعض المشكلات وحلها في الواقع، أو لتبسيط بعض الأمور للفنيين وعمال التنفيذ وتعرف برسوم التشغيل، يكتب عليها المقاسات بوضوح وتبين عليها بنود الأعمال وتكون لأجزاء صغيرة من المشروع، ويجب أن تعتمد هذه الرسومات من مهندسي الموقع قبل البدء في العمل.

٦- كيفية إعداد معماري البيئة

انتشر هذا العلم في العالم الغربي، ولم ينتشر عند العرب عدا المملكة العربية السعودية التي كان لها السبق في إنشاء أول قسم لتدريس عمارة البيئة، وكانت جامعة الملك عبد العزيز بجدة صاحبة السبق منذ عشرين عاماً في إنشاء قسم أطلقت عليه تصميم عمارة البيئة للحصول على درجة البكالوريوس في التخصص، وفي تلك الفترة تقريباً افتتحت جامعة الملك فيصل بالدمام قسم تنسيق المواقع للحصول على درجة الماجستير في التخصص، وفي العام (١٩٩٢م) فتح لطلاب الدرجة العلمية الأولى (البكالوريوس). وتحول في العام (٢٠٠٠م) مسمى القسم من تنسيق المواقع إلى قسم عمارة البيئة. وحتى الآن لا توجد إلا محاولات بطيئة في العالم العربي نحو اتجاه إنشاء أقسام لهذا التخصص على مستوى الدرجة العلمية الأولى (البكالوريوس)، ولكن ومن ناحية أخرى هذا التخصص انتشر على المستوى الفردي للمبتعثين إلى الخارج للحصول على درجة الماجستير والدكتوراه، ولكنهم يعودون لممارسة العملية التعليمية في قسمي العمارة والتخطيط. وهنا تجدر الإشارة إلى وجود بعض المعاهد المهتمة بتدريس البيئة مثل مركز البحوث والدراسات البيئية في مصر، ولكن اهتماماتها تركز دراساتها على البيئة بشكل عام وتأتي العمارة في مرحلة ثانوية، وأي ممارس لمهنة على الأرض يحتاج لإعداد يعني بالتعليم والتعلم، ويجب على المهني أن يكون دارساً وعلى علم بالنواحي النظرية والفنية التطبيقية، ومعروف أن المعماري يتعلم كم كبير من المعارف من الممارسة العملية.

٦. ١ إعداد ممارس المهنة في الجامعات والمعاهد العليا المتخصصة

تتنوع مدارس تعليم الاختصاصات العاملة في مجال البناء على مستوى العالم المتقدم، حيث يبدو الاختصاص أساسي عند الالتحاق بالجامعة، وبعدها عندما يحمل شهادة للممارسة. في الغالب ما تكون هناك كليات مختصة بالتخطيط والعمارة والتصميم العمراني، مع وجود أقسام مختصة بمجال اللاندسكيب مثلاً موزعة على كليات أساسية. فعلى سبيل المثال هناك اختصاص عمارة اللاندسكيب في كليات الزراعة لتعليم إعداد المشروعات ذات العلاقة بالنواحي البيئية والمرتبطة بالجوانب الطبيعية والحياة الفطرية، واختصاص آخر في كليات العمارة لإعداد تصاميم المناطق الحضرية، واختصاص في كليات الفنون لإعداد تصاميم الفراغات العمرانية. وهكذا يمكن التخصص في مجال عمارة اللاندسكيب وفقاً لطبيعة نوعية البيئة التي ترغب العمل فيها والحصول على الدرجة العلمية من عدة جامعات مختصة.

أما في العديد من جامعات بلدان العالم العربي كمصر (القاهرة والإسكندرية وعين شمس وأسيوط والأزهر)، وسوريه (دمشق وحلب)، والإمارات العربية المتحدة (العين)، والسودان (الخرطوم) لا توجد أقسام مستقلة لتعليم المهنة التي تهتم بإعداد الأمكنة الخارجية المفتوحة على هذا المستوى من الاختصاص، ولكن تدرس علوم المهنة ضمن أقسام العمارة والتخطيط العمراني بكليات الهندسة، وفي الغالب ما يكون إعداد المشروعات ذات التوجه البيئي تحت إشراف أساتذة اختصاصهم الأساسي هو العمارة ولديهم خبرة معرفية من الممارسة المهنية أو من خلال دراستهم للحصول على الماجستير والدكتوراه من الخارج. في الوقت الحاضر أصبح هناك أساتذة مختصون في هذا المجال لكن المسألة لا تزال غير موضوعية حيث أنهم يعودون ليعملون بالتدريس مرة أخرى في أقسام العمارة أو التخطيط.

ويعد قسم عمارة البيئة في كلية العمارة والتخطيط بجامعة الملك فيصل بالمملكة العربية السعودية واحد من التجارب المهمة التي يجب دراستها في العالم العربي للوقوف على إيجابياته وسلبياته في جانب تعليم ذلك الاختصاص غير المعترف به حتى الآن باعتباره اختصاص مستقل بذاته. حيث يدرس الطالب قبل التخصص العلوم العامة، ثم يأتي مجال الاختصاص لمدة أربع سنوات يدرس الطالب خلالها مجموعة من المعارف والعلوم الهندسية التي يتميز بها عن زملاؤه في أقسام الكلية الأخرى من حيث ارتباطها بالبيئة الخارجية وما تفرضه من تأثيرات لقوى الطبيعة فيها واضحة، إلا أنه يمكن القول أن مراسم التصميم تكون هي التعبير الحقيقي لإعداد الطالب معرفياً ومهنياً للممارسة.[١٠]

٦. ٢ إعداد ممارس المهنة في الواقع العملي

من البديهي في العالم العربي أن يكون المعماري هو رئيس فريق العمل وهو صاحب الجهد التنظيمي لوجوده كاختصاص عام منذ بدايات تدريس العمارة من جهة أو لانعدام دراية العميل بدور معماري البيئة في الوقت الحاضر. حيث لا يزال العميل سواءً أكان أفراد أو جهات حكومية أو خاصة أو مؤسسات لا تسند العمل بكامله إلا للمعماري، حتى لو كان توجه المشروع يميل إلى البناء في الأمكنة الخارجية المفتوحة داخل المدن والمناطق الحضرية (مثل الأماكن المواجهة للماء أو المنتزهات أو مدن الملاهي)، أو في المناطق خارج المدن وفي المناطق ذات الطبيعية البيئية (مثل المحميات الطبيعية أو المنتجعات السياحية)، أو حتى كان توجه المشروع بيئي بطبيعته وله هتمام بالكائنات الحية الفطرية وتأثيرات قوى الطبيعة (مثل حدائق النباتات والحيوات والأسماك، أو المتاحف المائية المفتوحة). يقوم المعماري بالاستعانة بالمختصين في هذا المجال في مجال الممارسة المهنية ويصبح التنافس واضحاً على الاستحواذ على العمل من قبل المعماريين أو المخططين، وتأتي باقي التخصصات تابعة لهم على الرغم من ضرورة إسناد تلك الأعمال للمختصين من البدايات المبكرة للعمل فيها. في دول العالم المتقدم، بات من الضروري أن يشارك المعماري المختص بإعداد الأمكنة الخارجية المفتوحة في المشروعات ذات التوجه البيئي، أو حتى كل المشروعات التي بها أمكنة خارجية مفتوحة ذات خصائص وملامح مؤثرة على كل من المكان والناس، ويصبح توقيعه على العمل ملزماً، ويؤخذ به ضمن مستندات تراخيص الموافقة على التنفيذ. والمدقق لبعض المشروعات التي نفذها المعماريين والمخططين دون الرجوع إلى مختصين مهنيين في عمارة البيئة يلاحظ أنها تفتقر إلى حد كبير لأساسيات التعامل مع الأمكنة الخارجية المفتوحة.

أما في العالم العربي النامي، فتقف عدم المعرفة والدراية بالمجال حائلاً بين إتاحة الفرصة للمختصين ليلعبوا دورهم الفعال والطبيعي. الآن، في المشروعات العمرانية كبيرة الحجم والمقياس، خاصة في مشروعات التنمية المتكاملة التابعة للمؤسسات الضخمة تجد أن معماري البيئة له مكاناً بارزاً وحيوياً ضمن فريق العمل، ولكن عادة ما يكون هذا المعماري هو خبير أجنبي لعدم الوعي بوجود هذا الاختصاص في العالم العربي. حتى أن خريجي أقسام عمارة البيئة في جامعة الملك فيصل يواجهون مشكلة عدم الحصول على عمل يناسب قدراتهم أو حتى طبيعة ما تلقوه من تعليم موجه نحو إعداد الأمكنة اخارجية المفتوحة. أحياناً يكون السبب في قصور الوعي لدى المختصين بوجود الاختصاص من أساسه أو لعدم رغبة المعماري العام في الاعتراف بوجود مختصين عرب يمكنهم العمل في هذا المجال، وأحياناً لأن الاستعانة بخبرات أجنبية يكون لها فوائد لكل الأطراف عدا الطرف العربي. ويقوم معماري البيئة بكل

الأعمال المطلوبة منه في المكتب الهندسي المتخصص، أو في قطاع التصميم والتخطيط والمتابعة في الهيئات والمؤسسات على مستوى تهيئة البيئات الخارجية المفتوحة. ابتداءً بالزيارات الميدانية وعمل المسح الميداني حتى تحليل الموقع وعمل الفكرة وإعداد المخطط العام والتفصيلي وعمل الرسومات التنفيذية وحساب الكميات والعقود. وعلى كل العاملين في المجال العمراني التعرف على دور معماري البيئة في العمل المكتبي لإسناد الأعمال المتخصصة له. فعلى سبيل المثال في بعض المكاتب الاستشارية في العالم النامي لا يوجد ذلك الاهتمام الكافي بإعداد الرسومات التنفيذية ذات الصلة بالأمكنة الخارجية، وإن فرضت الضرورة القيام بذلك فإن المكاتب المسؤولة تسند تلك الأعمال لمكاتب أجنبية مختصة، أو تستفيد من بعض الفنيين غير المختصين لإعداد هذه الأعمال.

وبالعودة مرة أخرى لمجال التعليم في أقسام عمارة البيئة في الجامعات يمكن رؤية مخططات لرسومات تنفيذية ذات ارتباط بالأمكنة الخارجية، وهي متدرجة بداية من مخططات المحاور والأبعاد، ومخططات توزيع النباتات، وصرف المياه، والطبوغرافيا ودراسات الميول، والإنارة الخارجية، وهذه المخططات لها أسس ومهارات، ويقوم بإعدادها مختصين في مجال إعداد الأمكنة الخارجية المفتوحة. ومن ثم ووفقاً لنوع العمل يجب اختيار المختص، فعلى سبيل المثال، يجب أن يقوم بالإشراف على أعمال الأمكنة الخارجية المفتوحة المختص المهني الدارس لعلوم ومعارف متخصصة مثل الطبوغرافيا والتربة والمياه والنباتات والحياة الفطرية. وإذا كان العمل التنفيذي مقسم بين المهندسين المختصين في الأعمال المدنية والمعمارية والكهربائية والميكانيكية، فإنه بالضرورة وجود مختص في إعمال تنفيذ الأمكنة الخارجية المفتوحة، وهو الأمر الذي يتطلب وجود مهندس تنفيذ الأمكنة الخارجية مثل مهندس تنفيذ الأعمال المدنية والكهربية والصوتيات والإضاءة والتشطيب المعماري والتصميم الداخلي. فعلى سبيل المثال يأخذ طلاب قسم عمارة البيئة في جامعة الملك فيصل، سنة دراسية عن إعداد الميول في مناطق الطبوغرافيا، ولديهم خبرة خاصة بتجهيز تلك المخططات، كما أن لديهم المعرفة بكيفية تنفيذ الأعمال التي تتناسب مع هذه الميول والأدوات المستخدمة، وليس من المقبول قيام معماريين أو إنشائيين أو فنيين بها على الرغم من وجود مختصين مؤهلين وذوي خبرة في هذا المجال.

٧. لماذا مهنة عمارة البيئة؟ ومن المسؤول عنها؟ وكيف يعد هذا المسؤول؟

ما زالت المهنة التي تتعامل مع الأمكنة الخارجية المفتوحة في المدينة العربية المعاصرة تعاني من عدم الفهم والوعي بها لدى العامة وبعض المختصين على حد سواء. هدف هذه المقدمة كان إلقاء بعض الضوء على هذه المهنة وفق ثلاثة تساؤلات هي: لماذا مهنة عمارة البيئة؟ ومن المسؤول عنها؟ وكيف يعد هذا المسؤول؟ وكانت أهم النتائج هي:

- هناك نقاش حول معاني الكلمات الأعجمية (الغربية) المستعملة في العالم العربي ومنها كلمة (لاندسكيب) landscape المستعملة دلالة على إعداد الأمكنة الخارجية المفتوحة، حيث تعد من أكثر المصطلحات إثارة للنقاش نظراً لصعوبة شرح وتفسير ماهية هذا التخصص، وأشارت التجربة في العالم الغربي والعربي على حد سواء إلى ضرورة احترام التخصص المعني بإعداد الأمكنة الخارجية بجانب التخصصات الأخرى مثل إعداد المنشآت والمباني المفردة.

- تصلح كلمة البيئة في مضمونها الأساسي إلى الإشارة لكل مكان خارجي مفتوح على سطح الأرض، وأنها كلمة جامعة لتصنيفات بناء الأمكنة الخارجية الطبيعية والأخرى الاصطناعية المشيدة، وفي كلا البناءين تعبر كلمة البيئة عن كيان البناء المبني والمفتوح معاً وضمنهما بناء الإنسان ذاته.

– كلمة العمارة وثيقة الصلة بالبناء، ولكل بناء بنية صغيرة تتحد وتتراكم تنويعاتها لتكون البناء العام والشامل، وإن استهدف البناء بنية المادة والروح (أي الكائنات الحية وعلى قمتها الإنسان) واللامادة (صناعة الطبيعة من سماء وماء.. الخ) فهي عمارة، وأن عمارة الأمكنة الخارجية المفتوحة هو بنـاء لهـا (يتضمن المادة والروح واللا مادة)، ومن هنا يمكن أن توصف مسألة التعامل مع الأمكنة الخارجية بالبناء على أنها عمارة الأمكنة الخارجية المفتوحة، ولمـا كانت البيئة شديدة الصلة بالأمكنة الخارجية المفتوحة فلا مانع من الاختصار ووصف تهيئة وبناء الأمكنة الخارجية المفتوحة بعمارة البيئة.

– يهيمن الغرب على تخصصات البناء، ولديه عدة مسميات معروفة تشترك كلها في إعداد الأمكنة الخارجية المفتوحة مثـل، التصميـم العمـراني، وعمارة البيئة، وما يشار إليه في العالم العربي بتنسيق المواقع landscape architecture، و على المهني الممارس العربي– توحيداً للمفاهيم وتسهيلاً للاستفادة من المراجع وكلها غربية– القبول بأن يكون مسمى عمارة البيئة المصطلح العربي والاحتفاظ به دون ترجمة حرفية له من اللغة الإنجليزية.

– فرض التطور في عمران المدن الالتفات إلى ثنائية تكوين المدن بين المنشآت المقفولة والمحيط الخارجي، وبالإشارة إلى الكبر النسبي للخارجي وتنوعـه واتصاله بالمقفول فإن وجود مجال يهتم بهذه الأمكنة ضروري وليكن عمارة البيئة. ومادام العالم العربي ما زال يصنف مجالات البناء تحت تدرج أعلى هـو الهندسة وحيث ارتبط عمل ممارسي مهنة البناء على مستوى العالم العربي بمهنة الهندسة وأن خريجي كلياتها ومعاهدها هم مهندسين، ويـأتي بعـد ذلـك التخصص الدقيق، بمعنى مدني وكهرباء ومعماري، ومن هنا يمكن أن يكون تخصص إعداد الأمكنة الخارجية هو هندسة عمارة البيئة.

– الهدف من تهيئة عمارة المكان هو التجهيز لكل ما هو في هذا المكان من روح وحياة أو من جماد، وسواء كان هذا المكان مبنياً أو مفتوحـاً، وأن عمارة البيئة تعني تحديداً بتهيئة الأمكنة الخارجية المفتوحة بكل ما فيها من طبيعي أو مصنوع، وتنقسم الجهود بين تهيئـة في البيئـة الطبيعيـة أو في البيئـة الاصطناعية المشيدة بمعرفة الناس.

– تعني الممارسة تهيئة المكان بمعرفة ودراية، ويتعدد مكان الممارسة بين موقع جغرافي أو موضع محدد الحجم والمقياس، ولكل مستوى أساليب تهيئـة خاصة بها. كما أن الحياة المعاصرة فرضت نوعيات جديدة من المشروعات في الأمكنة الخارجية المفتوحة تتطلب تخصصاً من نوع آخر عن الموجود، ومنـها: مشروعات المحميات الطبيعية، وتنمية المراعي، والمخيمات في الصحاري والغابات، والواجهات المائية، والمنتزهات، وحدائق النباتـات والحيـاة الفطريـة، والملاهي، والمتاحف ومعارض الأمكنة المفتوحة، والأسواق المفتوحة، وشوارع المشاة في المدن، والساحات والمناطق الفضاء الناقلة للحركة بين النشـاطات، الحرم حول المباني التاريخية الأثرية والتذكارية في المناطق ذات القيمة، ومن هنا كان الاحتياج لتخصص جديد.

– تضم دراسات المكان نوعين: أولهما– على المستوى المكتبي لإعداد الرسوم والمخططات والدراسات، وثانيهما– على المستوى التطبيقي، بهـدف العمل في الميدان وتنفيذ تلك المخططات. وكلاهما النظري والتطبيقي مكملين لبعضهما البعض.

– تتعدد مجالات التخصص في تهيئة الأمكنة الخارجية، ومنها: تخطيط وتصميم المواقع، التصميم العمراني، التصميم العمراني البيئي، تنسـيق الفـراغ الخارجي، وكلها لها علوم معرفية نركز على البيئات الخارجية، وهناك تكاملاً بين كل تلك المجالات، لكن تدعو الضرورة إلى وجود مختصين كل في مجاله.

- يحتاج إعداد المختص المسؤول عن تهيئة وإعداد الأمكنة الخارجية المفتوحة إلى تعليم وتدريب، فالتعليم الجامعي يفيد في إعداد الممارس من خلال تعريفه بعلوم لها علاقة بالبيئة الطبيعية و البيئة الاصطناعية، وكل من هذه العلوم له تفرده مثل علوم المناخ والتربة والنباتات والمياه والحياة الفطرية.

- يوضح تعليم المهنة على المستوى الدراسي المعارف التي يستفيد بها الطلاب أثناء فترة الدر اسة الأولية أو في برنامج الدراسات العليا، وهو برنامج مكثف ومختلف عما يدرس في باقي أقسام تعليم مهنة البناء، كما يكتمل إعداد هذا المسؤول في الميدان أثناء فترات التدريب الصيفي أو بعد الممارسة.

٨. خاتمة وتوصية

تنوعت عمارة الأمكنة التي يعيش فيها الإنسان بين الكتلة والفراغ الداخلي والخارجي، نتيجة لهذا التنوع وتعدد القوى المؤثرة عليها أصبح من الضروري وجود تخصص يعني بإعدادها، وخلصت هذه المقدمة إلى أن مصطلح عمارة البيئة العربي والمقابل الغربي له عمارة اللاندسكيب يعبران عن واحد من هذه التخصصات وهو إعداد الأمكنة الخارجية المفتوحة، كما تشير هذه المقدمة إلى ضرورة الانتباه إلى أن هناك بعض القصور في تعليم مهنة عمارة البيئة وإعداد المسؤول عنها في العالم العربي إلا قليلاً، وهنا بعض التوصيات:

- يتطلب تهيئة الأمكنة الخارجية من العاملين في مجال البناء فهم ضرورة وجود مختصين لهم دراية ومعرفة كافية بعلوم وطرق ومجالات التهيئة.

- ضرورة توجيه اهتمام الدولة على كل المستويات الحكومية والأفراد في البلدان العربية بفتح مدارس مختصة لتعليم المهنة، واعتماد خريجي هذه المدارس مختصين مهنيين في النقابات الهندسية تحت مسمى مهندس معماري البيئة.

- إعداد دراسة تطبيقية متخصصة تستند على عمل بحثي ميداني لاستكشاف مدى انتشار هذا العلم في العالم العربي، على أن يهتم هذا البحث الميداني بالتوزيع الجغرافي لهذه البلدان ومستوياتها الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية لبيان مدى الاحتياج إليه في كل دولة. وتجدر الإشارة إلى أن مثل هذه البحوث يجب أن يشرف عليها مراكز لديها الإمكانات البشرية والمادية القادرة على الوصول إلى نتائج واقعية، فالعالم العربي يضم أكثر من عشرين دولة كلها لديها جامعات متخصصة في العمارة، وهو الأمر الذي يجعل من هذا البحث مسؤولية قومية بما يترتب عليها من نتائج تهتم بمجال مهني جديد.

- يمكن أن يكون دور هذه المقدمة بجانب طرح هذا الموضوع للمناقشة من الناحية النظرية والإشارة لبعض الخطوط الإرشادية مدخلاً لعمل بحوث تطبيقية مستقلة عن مهنة عمارة البيئة، والدعوة لإعداد مؤتمر علمي على مستوى الدول العربية يتمحور موضوعه حول تخصص المهنة التي تعني بإعداد الأمكنة الخارجية المفتوحة، ويكون هدفه بيان حدود هذا التخصص وعلاقته بالتخصصات الأخرى في مجال البناء.